مستويات التناص في الشعر الجزائري القديم

د. محمد باقي
جامعة سيدي بلعباس

مازال الشعر الجزائري القديم يثير إهتمام الدارسين المعاصرين، لأن ثراءه يزداد يوما بعد يوم، وهذا أمام تنوع المناهج ، تعدد الطرائق التحليلية ، وتقاطع المعارف، وتقرب حقولها الشيء الذي جعل هذه البحوث شديدة التعقيد لا تفك عقدتها غلا بتضافر المعارف الإنسانية في سبر أغوار النصوص. والشعر الجزائري القديم من بين الموضوعات التي يجب على الباحثين التركيز عليها وطرحها ومعالجتها وإزالة الغبار عليها لأن الكثير من جوانبها لا يزال غامضا يحتاج إلى دراسات وبحوث معمقة ، والصعوبة التي تعترض الباحث في الأدب الجزائري القديم والشعر خاصة، هي قلة المصادر وصعوبة الاهتداء بها، وغرضنا من هذه الدراسة المتواضعة هي محاولة إثبات أن الأدب الجزائري بنثره وشعره يجب تطبيق الإجراءات الحديثة عليه، ومن بين هذه الإجراءات التي نحاول تطبيقها عن الشعر الجزائري القديم مصطلح التناص.

ويظهر معنى التناص وفق قراءة فرعية لنصوص غائبة، والكشف عن مكنوناتها يحتاج إلى إيجاد قارئ متميز وذكي، باعتبار أن منهج النص هو الذي يفسر هذه النصوص ويحاول إعادتها إلى منابعها الأصلية كأن تتضمن النصوص عناصر سلبية أوتيمة من بنيات نصية سابقة وتبدوا كأنها جزء منها لكنها لا تنحل في علاقة معها[1]

فالنص الشعري الجزائري نجده يترابط ترابطا تناصيا في بعض المستويات من ناحية التركيب والشكل والمضمون مع القرآن الكريم والشعر العباسي خاصة وفيه نتوقف لنكشف هذه الثنائية مع القرآن الكريم والشاعر الجزائري القديم القلعي.

التناص مع القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم معجزة ربانية وقد أثبث إعجازه عبر العصور وهو الذي أنزل على خلق الله كله وسيد البشرية محمد – صلى الله عليه وسلم – وهو صالح لكل زمان ومكان يخاطب العقل والروح ويمثل المعرفة الموصولة بالغيب والعلانية.

والقرآن قد احدث ثورة في الإبداع الفكري والفني، فجاءت كلماته متراصة، ومتناسقة، ومنسجمة، ترتاح لها النفس قبل العقل، وقد حاول الشعراء النضم على شاكلته وطريقته واتباع منهجه ولكن لم يستطيعوا على ذلك سبيلا والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة وهكذا تحدى القرآن الكريم النصوص الشعرية القديمة (وهو السر الذي جعل حضور النص القرآني في النصوص الشعرية العربية القديمة يكاد يكون مغيّبا، بل حتى النقد وعلوم البلاغة العربية لم تستطع إدراك هذه الجمالية التي سماها أحد النقاد المحدثين (تغييب مقام الكلام))[2] .

ومن خلال هذا نلاحظ أن بعض الشعراء قد أخذوا يستنبطون بعض الآيات من القرآن الكريم ويأخذون معناها ومبناها، وهذا لانبهارهم بها وإعجابهم لها، ثم يستعينون في إبداعاتهم سواء من ناحية المعنى أو المبنى (والقرآن الكريم هي النصوص التي استأثرت بعناية الشاعر المعاصر، باعتباره النص الذي يحمل أبعاد اللامحدود للحياة والإنسان)[3]

ومن الآيات التي اخترناها من القرآن الكريم ونهل منها بعض الشعراء الجزائريين القدامى، وحاولوا توظيفها واستخدامها وهذا ليؤكد علاقة قامت منذ بداية القصيدة فيبدوا في شكل اعتراضي (يتضمن إشارة أو أكثر إلى واقعة أو شخصية من منظور الماضي فيكون لهذا الاعتراض قيمة أسلوبية كما تكون له قيمته الإيحائية في توكيد مغزى النسق الصياغي وتعميق مراميه)[4]

إن هذه العينة التي تحاول إستغلال النص القرآني استغلالا فنيا، وتركيبيا وأفكارا هو شاعرنا القلعي ويمكن تقديم شاعرنا القلعي، فهو عبد الله محمد بن الحسن بن علي بن ميمون التميمي القلعي نسبة إلى قلعة بني حماد، نشأ بالجزائر وتتلمذ على شيوخها منهم "علي أبو عبد الله بن منداس" انتقل إلى بجاية وكانت له صلات وثيقة بعلمائها، وأخذ عنهم الشعر الكثير فأصبح علما من أعلام اللغة العربية تجمع حوله طلبة كثيرون يقرؤون على يده فنون اللغة والأدب، وكان شيخا ذا مروءة، ومصنفات القلعي كثيرة منها:

(الموضح في علوم النحو) و (صدق العيون في تنقيح القانون) و(نشر الخفي في مشكلات أبي علي) فكان فحلا من فحول شعراء عصره، مطبوعا دقيق المعاني، مثين البيت، جزير اللفظ يمحو في شعره منحى (حبيب بن أوس) وهذا التناص مع القلعي في القرآن الكريم يمكن تلخيصه فيما يلي:

يقول القلعي في أحد أبياته:

تنافس الناس في الدنيا وقد علموا

أن المقام بها كاللمح بالبصر [5]

وشاعرنا هنا يتناص مع القرآن الكريم في شكل امتصاص للآية الكريمة {وأمرنا إلا واحدة كلمح البصر} [6]

وهنا نجد توظيف هذه الآية الكريمة توضيحا لا غبار عليه يحقق هذا المعادل الموضوعي في القرآن الكريم مع نصه الشعري فهو يؤكد أن الدنيا ذاهبة للزوال وأن الحياة لا قيمة لها إن لم تكن مدعمة بالخير والعمل الصالح وهذا ما تؤكد عليه الآية السابقة، إضافة إلى هذا نجد أن آية اخرى من القرآن الكريم تتداخل مع النص الشعري للقلعي وهذا في قوله:

لم يفد سبأ مال ولا ولد

ومزقته يد التشتيت في الاثر [7]

يقابلها في القرآن الكريم قوله تعالى: {لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وعن شمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور وأعرضو ا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجناتهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور} [8]

وقد تعددت التداخلات القرنية مع بيت القلعي التالي وهذا يدل دلالة واضحة على نجاح الشاعر في توظيف معاني القرآن الكريم مبنى ومعنى ويظهر لنا تشبع الشاعر بالثقافة الدينية وهذا ما يؤكد عليه البيت التالي:

أين الأولى جنب خيلا موسومة

9 وشيدوا إرما خوفا من القدر

يتداخل هذا البيت رمزيا مع الآيات الكريمة في قوله تعالى: {الم ترى كيف فعل ربك بعاد إرم ذات المعاد}[10].

فقد نجح الشاعر في توظيف النص القرآني لأنه يشكل جزءا أساسيا من مخزونه الثقافي والديني سواء من حيث اللغة التي تربط الذات العلوية عبودية وتوحيدا ومن هنا يظهر لنا الشاعر بين الفينة والأخرى ملتزما بالقرآن الكريم حرفا ومعنى، فلا شك الشاعر أضحى يستمد أفكاره وتراكيبه من منبع كريم، وأصل محكم وهو القرآن الكريم، وهذا يعطي انطباعا خاصا ورونقا جديدا لنصه الشعري أنظر إذا لهذا البيت كيف يكون هذا التداخل بين الشاعر والآية الكريمة، قول الشاعر:

أنظر لمن باد آية عجبا

وعبرة لأولي الألباب[11]

ويتجسد هذا التناص ضمن ما يسمى الإحالة إلى تناص ديني، من خلال قصة إرم والتي تعد أبرز الخطاب التناصي تلك التي تحقق من خلال شخصية ترتبط بالخطاب أو الثرات الديني سواء بالمباشرة أو التصريح بالاسم أو بالإيحائي والإشارة إليها من خلال موقف تاريخي أو صفة بعض الأنبياء.

إن القلعي يقوم بتوظيف بعض النصوص القرآنية متخذا بذلك طابعا اجتراريا لأن دلالة الرمز تكون مألوفة، وتظل الحادثة الدينية على أصلها الأولى مع محاولة الشاعر إعطائها بعدا جديدا يعيش فيه الحاضر مع الماضي دون أن يطغى أحدهما عن الآخر، وهذا يدخل في إطار التناص واضح مع القلعي فهناك مقاربة بينهما بامتداد حادثة إرم، وهذا يدل دلالة واضحة على الثقافة الأيمانية التي يتحلى بها كل منهما، وعلى المخزون الديني الذي يتمتع به كل واحد منهما، فيتوحد القلعي مع البصبري في هذا الموقف لهذه الحادثة الدينية المذكورة.

فقد أثارت هذه الأبيات للشاعرين قضايا فكرية وفلسفية حاول من خلالها أن يذكر الناس أن الدنيا زائلة وهذا ما صبغ مواقفهما بالطابع التأملي في نعيم الدنيا وزوالها وقد قدما في توظيفهما لهذه الحادثة استعلاءا فكريا للذات الإنسانية والأمل، في انتصار خيرها على شرها إذا ما حملت قيمتها من حب ،وحرية، وعدالة.

وفي الأخير إن دراستنا لمستويات التناص في الشعر الجزائري القديم مع النص القرآني يدل دلالة واضحة أن الشعراء القدامى نجحوا في توظيف بعض الآيات من القرآن الكريم سواء من ناحية المعنى أوالمبني، مع المحافظة على الدلالة الحقيقية له، والتي لا تخرج عن الاطار الذي رسم للقرآن الكريم، فقد استلهموا هذه الآيات واستخدموها استخداما موفقا في شعرهم، وهذا وفق وستويات تناصية مختلفة تراوحت بين الاجترار الذي يوظف النص الغائب مع النص الحاظر، والامتصاص الذي يستخدم فيه الشاعر الدلالات والديوال اللغوية، ويعيد تشكيلها وتوزيعها في نص حاضر، يمتزج النصان لتوليد الدلالة الجديدة ومنحه جانبا لدراسة الخطاب، فيأتي النص الحاضر مشبعا بجزء مهم من القرآن الكريم، وهذا للتعبير عن الحالات التي يطمح الشاعر أن يوصلها إلى المتلقي.

التناص مع الشعر العباسي:

إن توظيف الثراث واضح وجلي في الشعر الجزائري القديم وهذا يتجلى من خلال التداخلات النصية مع الشعر العباسي، حيث وظف الشعراء الجزائريين القدامى استدعاء الملامح الثراثية وهذا ناتج عن تمثل الماضي والوقوف عند دلالته الرمزية للتعبير عن الغرض الذي يرمي إليه الشعراء، وقد فتحت هذه التداخلات النصية إذ شكلت جزءا أساسيا من بنية القصيدة الجزائرية القديمة مع الشعر العباسي لتحدثا بينهما رضاعة وتآخي وهذا ما خلق مولودا إلى النور يدعى النص الشقيق، لأن النص ليس ما يطفو على السطح، ولكنه ما ينبث في العمق أيضا.

ونقدم عينة من ذلك: أنظر هذا البيت للقلعي حين يقول:

الخبر أصدق في المرأى من الخبر

فمهد العذر ليس العين كالأثر [12]

يقول أبو تمام في المقابل:

السيف أصدق أنباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب [13]

إذا ارتضينا أن ندرك التداخل والتناص المخيم على هذه الأبيات بين القلعي وأبي تمام نجه ظاهرا وينفتح على كل تأويل، فهذا التناص قائم على إمكانية التجاوز والانفتاح بين النصين المذكورين سابقا.

ويعطي هذين النصين فرصة الانتشار في حقول المعرفة المتعددة، يظهر أن نص القلعي مرتبط ارتباطا واضحا مع نص أبي تمام من ناحية تخاطر الأفكار والمعنى.

وتداخل آخر يفضي أولهما إلى ثانيهما فيكسبه قدرا من التناسق والانسجام في المضمون والمعنى أنظر هذا النص للقلعي مع نص أبي تمام :

يقول القلعي مذكرا بعواقب الدنيا وزوالها:

تنافس الناس في الدنيا وقد علموا

أن المقام كاللمح بالبصر 14

يقول أبو تمام في هذا الصدد كاشفا ثنائية الزمان والتحول من خلال فعل الدنيا وزوالها فتكون نهاية هذا البعد اندثارا وزوالا

كذلك الدنيا فلا تؤمن لها

فكم تغر بوصلها المقطوع 15

هنا كأننا مع محاورة بين شاعرين ينجذبان في نفس الاتجاه وقد ارتكزت على استنطاق لغة الشاعرين ورأياهما لزوال الدنيا ونعيمها، كما نجد هناك تداخل آخر بين القلعي وابن الرومي في شكل امتصاص لدوال التناص القائم بينهما، يقول القلعي:

هو الحِمام فلا تبعد زيارته

ولا تقل ليتني منه على حذر 16

وبالمقابل نجد ابن الرومي يستخدم تركيبة الحِمام يرثي فيها ابنه:

توخى حِمام الموت أوسط صبية

فلله كيف اختار واسطة العقد [17]

إن أبا تمام يذكرنا بهذا التحول من خلال فعل الدنيا وعواقبها فهو يؤكد أن الفرد مهما كانت قوته وجبروته، فإنه يقهر ويقمع ويهلك ويفنى، وهذا مصدر أساسي للشعور بالغلبة والقهر فهو يذكرنا بالملوك وتسلطهم وما جمعوا، ثم ينتهي بهم الموقف إلى الموت والفناء بعدما كانوا في نعيم ورفاهية.

يقول أبو تمام:

أين الملوك وأين ما قد جمعوا

من كل ذخر في الحياة رفيع

لم يبق منها غير عمل صالح

يملأ الصحيفة أو ثنا مسموع [18]

وبالمقابل نجد القلعي يعرض لهذه القضية الحساسة حيث يقول:

ولتفتكر في ملوك العرب من يمن

ولتعتبر بملوك الصين من مضر

أفناهم الدهر أولهم وآخرهم

لم يبقى منهم سوى الأسماء والسير [19]

إن التناص بين الشعر الجزائري القديم ظاهرة فنية تقوم على تداخل النصوص وتناسلها، وهذا ما يدل على تقاطع الأفكار والمعاني بين الشعر الجزائري القديم والشعر العباسي .

وبهذا يتحقق التناص الذي يتقاطع مع النصوص الأخرى .

الإحالات:

1 – جهاد عطا نفيسة، مشكلات في السرد الروائي، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001 ص297 .

2 – – جمال مباركي، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، إصدارات رابطة إبداع الجزائر 2003 ، ص168.

3 – عبد الحميد جيدة، الإتجاهات الجديدة في الشعر العربي، مؤسسة نوفل، بيروت 1980 ص66 .

4 – – محمد فتوح أحمد، واقع القصيدة العربية،ط1 ، دار المعارف، القاهرة1984 ،ص156.

5 – أبوالعباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية ، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981 ،ص98 .

6 – سورة القمر الآية 50.

7 – عنوان الدراية ص97 .

8 – سورة سبأ الآية 15–17.

9 – عنوان الدراية ص98 .

10– سورة القمر الآية50.

11– عنوان الدراية ص98.

12– عنوان الدراية ص98.

13– ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عبدو عزام، دار المعارف 1983 ،ص36 .

14–الديوان ص56.

15–الديوان ص98.

16–عنوان الدراية ص98.

17– فوزي عطري، بن الرومي شاعر الغربة النفسية، دار الفكر العربي، بيروت 1998 ص82.

18– الديوان ص56.

19– عنوان الدراية ص98.